مكتبة جامع القرويين بفاس و نوادرها

الأستاذ المرحوم
الشيخ عبد العزيز الميمنى

مكتبة جامعة فنجاب (لاهور) مَدينةٌ للأستاذ المكرم محمد شفيع، حيث إنها تعدّ الآن بجهوده من كبرى المكتبات الهندية من ناحية المطبوعات، و يا ليت لوكانت فيها المطبوعات العربية بدلاً من هذا العدد الضخم من الكتب الألمانية و الفرنسية، فان المستفيدين من الكتب العربية أكثر من الذين ينظرون فى غيرها.

و قد وصل فى هذه الأيام [١٩٢٤م] فهرسان: الأول «برنامج جامع القرويين»، و الثانى «برنامج رباط الفتح»، أولهما باللغة العربية فلعل فائدتها تكون أعم. و لما وجدت أهل بلادنا لا يعرفون عن بلاد المغرب شيئاً أحببت أن أكتب هذه السطور (لتكون تعريفاً موجزاً بجامع القرويين بفاس و مكتبته القيمة)

هذا الجامع — الذى كان فيه قبل أعوام قليلة ألفان من طلبة العلم، و خمس مئة مدرس، و أكثر من سبعة و عشرين ألفا من الكتب ١؛ و يوجد فيه الآن خمس مئة طالب. و ٦٤١ كتاباً ٢ — يعدّ أقدم جامعة

---

١. منجم العمران (٢ : ٣١٨).

٢. انظر مقدمة «برنامج جامع القرويين».

فى العالم الاسلامى؛ أما الجامع الأزهر بمصر، و جامع الزيتونة بتونس، و جامع بخارى، و جامع قرطبة، و الجامعة المستنصرية ببغداد فكلها متأخرة زمنياً عن جامع القرويين. و فيما يلى موجز عن تاريخه و نشأته على مرّ العصور:

تأسيس الجامع: من حسن الحظ أن بين يدى الآن مصدر من أوثق المصادر لتاريخ المغرب، و هو «الأنيس المطرب القرطاس فى أخبار ملوك المغرب و مدينة فاس» لابن أبى زرع، و هو يحتوى على الحوادث إلى سنة ٧٢٦ هـ. و قد ذكر فيه المؤلف بتفصيل[١] تاريخ الجامع فى مختلف العصور و ما طرأ عليه من الحوادث و التقلبات، و ما أنشئت فيه من المبانى، يظهر من كل ذلك مدى إسهام هذا الجامع فى تثقيف بلاد المغرب و تغذيتها علمياً و روحياً و يوجد فى مراكش كثير من الجوامع، إلا أن ما امتاز به جامع القرويين من الشهرة و العظمة لم يكن فى نصيب غيره من الجوامع. و كتاب ابن أبى زرع هذا طبع على الحجر بخط مغربى[٢]، و هنا أعرض أمام القراء مختارات من هذا الكتاب.

فى عهد الامام إدريس — مؤسس دولة الأدارسة — كانت تقام صلاة الجمعة فى جامع الشرفاء[٣]، و هكذا كان الأمر فى عهد الأدارسة، و كان مكانَ جامع القرويين ميدانٌ فسيحٌ يحتوى على بعض الأشجار التى ورثها أحد من أهاليه. و عند ما بدأت تجئ الوفود من سائر أنحاء البلاد إلى الامام إدريس كان من بينها وفد القيروان. و كانت فى هذا الوفد

١. انظر ص ٣٢ – ٥١ من الكتاب.
٢. و هذا يختلف كثيراً عن الخط الشرقى عندنا، و يقترب من أصله الخط الكوفى.
٣. القرطاس: ٣٢ (طبعة فاس)

المرأة الصالحة أمّ القاسم فاطمة بنت محمد الفهرى القيروانى مع زوجها و أختها و بعض أقاربها ، و هؤلاء نزلوا قرب الجامع المذكور . و سكنوا هناك و بعد ما توفى زوج فاطمة و أختها ورثت أموالاً كثيرةً من المكسب الحلال ، و أرادت أن تصرفها فى أعمال الخير . فاشترت أرضاً ، و أسست الجامع يوم السبت فى غرة رمضان المبارك سنة ٢٤٥ هـ[١] . و بنته بكل عناية و اهتمام — و هذه البئر التى توجد بداخل الجامع هى التى بنتها زمن بناء الجامع — ، كانت تصوم فى هذه المدة ، و بعد ، ما كمل بناؤه صلت ركعتين شكراً لله على ما وفق. كان الجامع فى ذلك الوقت يسع أربعة صفوف ، و أمامه صحن صغير . و بين الجدارين الغربى و الشرقى قدر مئة و خمسين إصبعاً . كما ذكره أبو القاسم ابن حسنون فى تفسيره فى تاريخ مدينة فاس و يقول بعض المؤرخين أن فاطمة أم البنين و مريم كانتا أختين (ابنتى محمد الفهرى) ، بنت فاطمة جامعة القرويين، و بنت مريم جامع الأندلس . ثم قام بتوسيعه الزناتة (قبيلة من قبائل البربر) فى دولتهم كما تبدو حدوده إلى الآن . و لم تكن فى مسجد الشرفاء سعة ، فبدأ الناس يصلون الجمعة فى جامع القرويين من سنة ٣٤٥ هـ. و كان أول خطيب له الشيخ الصالح أبو محمد عبدالله بن على الفارسى .

يبدو مما ذكرنا فوق أن « القرويين » نسبة إلى « القيروان » و قد حققنا ذلك أيضاً فى مقالنا « المعز [بن باديس] و ابن رشيق » ٢ .

---

١ . فى معجم العمران : « سنة ٢٤٦ هـ » ، و لعلها تاريخ انتهاء البناء ، و المذكور فوق تاريخ البدء فيه .

٢ . المنشور فى مجلة « معارف » الصادرة بأعظم گره ، أعداد مارس ـ مايو ٩٢٤ ، و هو باللغة الاردية . و انظره باللغة العربية فى كتاب الميمنى « ابن رشيق » (ش) .

يُعرف أهل مراكش و علماؤها و مشايخها بالحفظ و الذكاء و شغفهم بالعلم فى بلاد المغرب ، و قد صنع الشيخ عبدالحى الكتانى — شيخ الطريقة الكتانية ، الذى يُعدّ من مشاهير علماء البلاد و كبار مشايخ الجامع من قبل الاحتلال الفرنسى — فهرساً لمحتويات المكتبة بعد البحث و التنقيب . و الأسف أن علماءنا لايشتغلون بمثل هذه الأعمال العلمية مع توفر كل الصلاحيات إلا باشارة من هؤلاء المحتلين الغاصبين أهل الغرب . و العجب أن يبذل كل الجهود عالم من علمائنا ثم ينسب هذا العمل إلى « ألفريد بيل »[1] مندوب المعارف !

إذا أنشدَ بشّارُ فقُل أحسنَ حمّادُ

حكم على مراكش عدة أسر ، و لما كانت كلها تدعى الاسلام احتفظت بمكتبة الجامع و قامت برعايتها ، بل إن كثيراً من السلاطين حاولوا إثراءها بنوادر الكتب ، مثل السلطان أبى العباس منصور بن أحمد الذهبى السعدى ، و السلطان أبى عبد الله سيدى محمد (من أسلاف الدولة الشريفية الحالية) ، إنه لم يكن هناك أى تنظيم فى المكتبة فى كثير من العصور ، فالعلماء عند ما كانوا يستعيرون الكتب قلما يرّجعونها إلى المكتبة ، و لم يكن فيها اهتمام بحفظ الكتب و تجليدها ، فضاعت كثير من نوادرها و أكلتها الأرضة ، كما يظهر من الفهرس القديم للمكتبة ، و هل هناك شيء أدلّ على سوء التنظيم أن يكون راتب أمين المكتبة

١. طبع هذا الفهرس منسوباً الى ألفريد بيل فى فاس ١٩١٩ م . و الميمنى يتعجب من هذا الصنيع ، لان العمل فى الحقيقة كان للكتانى . و غضبه على بعض أساتذة جامعة فنجاب (لاهور) معروف من مقاله المنشور فى « مجلة المجمع العلمى » بدمشق ٨/٥٢٠ - ٥٣٦ (١٩٢٨ م) بعنوان « المكاره التى حف بها اقليد الخزانة » . (ش)

دولاراً و نصف شهرياً ؟! و لم يكن هذا الوضع العصور السابقة، يقول ابن فرحون فى ترجمة أبى العباس أحمد بن الصقر الخزرجى : « و تولى أحكام مراكش و الصلاة بمسجدها مدة، ثم أحكام بلنسية ، فكان بها قاضياً ، و لما صار الأمر إلى أبى يعقوب عبد المؤمن ألزمه خدمة الخزانة العالية ، وكانت عندهم من الخطط الجليلة التى لا يعين لها إلا علية أهل العلم و أكابرهم » . ١ و معنى ذلك أن هذا المنصب كان منتهى ما يرتقى إليه القاضى ، و هذا يدل على أن المكتبة كانت زاخرة بالكتب و النوادر فى تلك الأيام .

و فى « منجم العمران » ٢ (تحت كلمة « مراكش ») أن مكتبة السلطان تحتوى على ألف مخطوط جلبها مولاى حسن (من سلاطين الدولة الشريفية) من مكتبات قرطبة و غرناطة .

و مع هذه التقلبات و الحوادث التى مرت بها المكتبة توجد فيها نوادر المخطوطات التى قلما تكون نسخها فى المكتبات الأخرى ، و عليها خطوط العلماء و خواتيم الملوك و غيرها ، و أقدم مخطوط فيها يرجع إلى القرن الرابع الهجرى، أما خطوط القرنين الخامس و السادس فكثيرة . منها مجلد من « صحيح البخارى » عليه إجازة بخطّ يد الطاهر بن مفوّز سنة ٤٨١ ﻫ ؛ و نسخة من « صحيح مسلم » فى مجلد واحد مكتوبة بخط أديب بارع ، و صححه أبو بكر بن خير الاشبيلى سنة ٥٧٥ ﻫ ؛ و نسخة من تفسير ابن أبى زمنين [١] ، قرئت على المؤلف سنة ٣٩٥ ﻫ . و فيما يلى

---

١. الديباج المذهب : ١٤٩ ٢. (٢ : ٣١٦) .

٣. هو فى الحقيقه مختصر تفسير يحيى بن سلام التيمى (ت ٢٠٠ ﻫ) و ابن أبى زمنين توفى عام ٣٩٩ ﻫ . انظر : تاريخ التراث العربى ، لسزگين ١/٨٠، ٦٦ (من الترجمة العربية) ط ٢ . (ش)

فهرس لبعض أهم المخطوطات و نوادر الكتب بعد استقراء ناقص و مرور سريع[١] :

التفسير :

١. الجامع لأحكام القرآن[٢] ، لأبى عبد الله القرطبى (ت ٦٧١ هـ) فى ١٨ مجلداً .

٢. البحر المحيط ، لأبى حيان [الأندلسى (ت ٧٤٥ هـ)] (و قد طبع أخيراً) [٣] . توجد منه ثمانى نسخ خطية .

٣. قانون التأويل[٤] ، لأبى بكر ابن العربى المالكى (ت ٥٤٣ هـ) .

٤ تفسير الماوردى[٥] [ت ٤٥٠ هـ] .

القراءات :

٥ الوقف و الابتداء[٦] ، لأبى بكر ابن الأنبارى [ت ٣٢٨ هـ] .

١. ذكر الميمنى بعض هذه المخطوطات فى مجلة المجمع العلمى بدمشق ٦٨٣/٣٣ – ٦٨٥ (٩٥٨ م) . و قد نشر فى مجلة معهد المخطوطات العربية ٣/٥ – ١٦ (١٩٥٩ م) مقال عن « خزانة القرويين و نوادرها » كتبه العابد الفاسى . و مقال آخر كتبه صلاح الدين المنجد فى المجلة نفسها ١٩٣/٥ – ١٦٧ . (ش)

٢. نشرته دار الكتب بالقاهرة فى عشرين جزءاً ، و صدرت طبعات مصورة عنه فى بيروت عدة مرات . (ش)

٣. فى مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٩ هـ فى ثمانية مجلدات (ش)

٤ ذكر بروكلمان نسخه الخطية كتابه (GAL I, 413) و الملحق (S. I 732) (ش)

٥ بعنوان « العيون و النكت » و انظر بروكلمان فى كتابه (GAL I, 386) و الملحق (S I, 668) (ش)

٦. نشره مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧١ م بتحقيق محى الدين عبد الرحمن رمضان . (ش)

الحديث :

٦. شرح البخارى [١] ، لابن بطال [ت ٤٤٩ ه] .

٧. شرح البخارى [٢] ، للمهلب ؟

٨. القبس شرح موطأ مالك بن أنس [٣] ، للقاضى أبى بكر ابن العربى [ت ٥٤٣ ه] .

٩. المسالك شرح موطأ مالك [٤] ، له .

١٠. محاذى موطأ مالك [٥] (أى موطأ المهدى ابن تومرت [ت ٥٢٤ ه] مؤسس دولة الموحدين) نسخة مطلاة .

١١. الأحكام الصغرى [٦] . لعبد الحق الاشبيلى [ت ٥٨١ ه] .

١٢. (الأحكام) الكبرى [٧] . [له] .

١٣. مسند عبد بن حُميد [٨] [الكسى (ت ٢٤٩ ه)] .

---

١. ذكر سزگين نسخه الخطية فى تاريخ التراث العربى ١٧٨/١ (من الترجمة العربية) ، و من بينها نسخة القرويين . (ش)

٢. لا أعرف هذا الشرح و مؤلفه ، و لعل فى اسمه تصحيفا . (ش)

٣. انظر نسخه الخطية عند سزگين فى تاريخ التراث العربى ١٢٧/٢ (من الترجمة العربية) و قد ذكر نسخة القرويين هذه أيضاً . (ش)

٤. انظر المصدر السابق ١٢٧/٢ . (ش)

٥. انظر مجلة معهد المخطوطات العربية ١٠/٥ . وهو مطبوع ، كما نبه على ذلك فى هامش أصل المقال . (ش)

٦ ــ ٧ ذكرهما بروكلمان فى كتابه (GAL I, 371) و الملحق (S. I, 634) ، و توجد منها عدة نسخ خطية فى العالم . (ش)

٨ توجد منه نسخ كثيرة ، انظر : تاريخ التراث العربى ١٧٠/١ (الترجمة العربية) . (ش)

١٤. كتاب الزهد و الرقائق [١]، لعبد الله بن المبارك [ت ١٨١ هـ] مكتوبة سنة ٤٦٥ هـ، مهمة للغاية .

١٥. البداية و النهاية [٢]، لابن كثير [ت ٧٧٤ هـ] من نوادر كتب التاريخ على طريقة المحدثين .

١٦. كتاب الوهم و الايهام [الواقعين فى كتاب الأحكام] [٣]، لابن القطان [ت ٦٢٧ هـ] .

١٧. الاكمال [٤]، للأمير ابن ماكولا [٤٨٦ هـ] .

١٨. تاريخ ابن أبى خيثمة [٥] (ت ٢٧٩ هـ) .

١٩. جمهرة نسب قريش [٦]، للمصعب الزبيرى [ت ٢٣٦ هـ] . هذه الكتب الأربعة ذكرها صاحب « البرنامج » فى قسم الحديث . ربما لأن مؤلفيها من المحدثين .

---

١. طبع في ماليگاون (بالهند) بتحقيق محمد حبيب الرحمن الاعظمى سنة ١٩٦٧م، و يلاحظ أنه لم يطلع على هذه النسخة . (ش)

٢. كذا سماه الميمنى، و المعروف « البداية ... » . و قد طبع فى ١٤ جزءاً بالقاهرة ١٩٣٢ م . (ش)

٣. انظر : بروكلمان فى كتابه (GAL I, 371) و الملحق (S. I, 634) . (ش)

٤. كتاب جليل فى المؤتلف و المختلف، نشرته دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد ١٩٦٢ - ١٩٦٥ م ستة مجلدات منه بتحقيق عبد الرحمن المعلمى، و نشر السابع الاخير فى بيروت مؤخراً غفلا من التحقيق العلمى . (ش)

٥. الموجود منه السفر الثالث فقط، و هذه النسخة فريدة فى العالم انظر وصفها فى « بحوث فى تاريخ السنة المشرفة » لاكرم ضياء العمرى : ٢١٢ - ١١٥ (ط . بيروت ١٩٧٥ م) . (ش)

٦. نشرته دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٣ م بتحقيق أ. ليفى بروفنسال . (ش)

النحو :

٢٠. شرح جمل الزّجاجي[١] [ت ٣٣٩ هـ] .

٢١. الافصاح شرح « إيضاح أبي علي الفسوي »[٢] [ت ٣٧٧ هـ] .

٢٢. الأفعال[٣]، لابن القطّاع [ت ٥١٥ هـ] . نسخة قديمة و توجد منها نسخة جيدة في مكتبة رامفور أيضاً .

٢٣. مشكل إعراب أشعار الستة[٤] ، لابن خروف النحوي الحضرمي [ت ٦٠٦ هـ] . توجد منه نسخة أخرى في مكتبة رباط الفتح أيضاً .

٢٤. المقنع[٥] ، لابن عصفور [٦٦٩ هـ] .

٢٥ الأسئلة[٦] . لابن السِّيْد البَطليَوسي [ت ٥٢١ هـ] . استفاد منه كثيراً السيوطي [ت ٩١١ هـ] في « الأشباه و النظائر النحوية » .

---

١. هو في الحقيقة « شرح شواهد جمل الزجاجي » (ت ٣٣٩ هـ) تأليف أبي القاسم عيسى بن ابراهيم القيسي انظر : مجلة معهد المخطوطات ١٤/٥ (ش)

٢. الشهير بالفارسي ، و الكتاب من تأليف ابن أبي الربيع الاموي (ت ٦٨٨ هـ). و قد ذكر بروكلمان هذه النسخة في تاريخ الادب العربي ٩٢/٢ (من الترجمة العربية) . (ش)

٣. نشرته دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد ١٣٦١ هـ . (ش)

٤. لم أعثر على ذكره بين شروح المعلقات و قصائد الشعراء الستة ، عند بروكلمان و سزگين (ش)

٥ ذكر هذه النسخة بروكلمان في تاريخ الادب العربي ٣٦٦/٥ (الترجمه العربية) . و نقل عنه محقق « ضرائر الشعر » في مقدمته ، و لم يذكرها محقق « المقرب » في ترجمة ابن عصفور . (ش)

٦. انظر مجلة معهد المخطوطات ١٥/٥ ، ١٦٣ . (ش)

اللغـة :

٢٦. مختصر العين [١] ، للامام [أبى بكر محمد بن الحسن] الزُبيدى [ت ٣٧٩ ﻫ] ، و هو معجم معروف .

٢٧. ديوان الأدب [٢] ، للفارابى [ت ٣٥٠ ﻫ] خالِ الجوهرى [ت ٣٩٣ ﻫ] صاحب « الصحاح » .

٢٨. تكملة القاموس [٣] ، للسيد مرتضى البلگرامى [الزَبيدى الهندى (ت ١٢٠٥ ﻫ)] نسخة مكتوبة بخط المؤلف .

٢٩. كتاب الفرق فى اللغة [٤] ، للجاحظ [ت ٢٥٥ ﻫ] .

٣٠. كتاب الألفاظ المغربة بالألفاظ المعربة [٥] ، لابن قتيبة [ت ٢٧٦ ﻫ]

التاريخ :

٣١. رحلة البلوى [٦] ، أكملها سنة ٨١٩ ﻫ .

---

١. ذكر بروكلمان هذه المخطوطة و غيرها فى تاريخ الادب العربى ١٣٣/٢ ـ ١٣٤ . (ش)

٢. نشره مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٩ م فى أربعة مجلدات مع مجلد خاص بالفهارس ، بتحقيق أحمد مختار عمر . (ش)

٣. و هو تكملة لما فات صاحب القاموس من اللغة ، و هذه النسخة فريدة فيما أظن ، و لم يعرفها أبو محفوظ الكريم معصومى فى مقاله الممتع عن « الزبيدى » المنشور فى مجلة المجمع العلمى الهندى ٤٨/٥ (١٩٨٠ م) . (ش)

٤. الكتاب ليس للجاحظ، بل لابى محمد ثابت بن أبى ثابت (كان حيا فى ٢٢٢ﻫ) كما فى مجلة معهد المخطوطات ١١/٥ و ١٦٤ . و قد طبع الكتاب أخيراً بالمغرب . (ش)

٥. ذكر فى مجلة معهد المخطوطات ١٦٦/٥ أن الكتاب لعيسى صاحب مثلث الكلام . (ش)

٦. عنوانه « تاج المفرق » . انظر مجلة معهد المخطوطات ١٦٥/٥، ١٧٣، ١٩١. ذكر فيها بعض المخطوطات الاخرى للكتاب . (ش)

الأدب :

٣٢. خريدة القصر[١] ، للعماد الأصفهانى [ت ٥٩٧] . توجد نسخته فى إستانبول أيضاً .

٣٣. شرح مقصورة حازم[٢] ، للغرناطى [ت ٧٦٠ هـ] .

٣٤. شرح ديوان المتنبى[٣] ، للافليلى [ت ٤٤١ هـ] ، من أحسن شروح الديوان . و توجد فى مكتبة الرباط أيضاً نسخة منه .

٣٥. الفصوص[٤] ، لصاعد اللغوى [ت ٤١٧ هـ] . وهو من المؤلفات الجليلة النادرة .

الطب :

٣٦. الاستقصاء و الابرام فى علاج الجراحات و الأورام[٥] ، لمحمد بن [على بن] فرج الفهرى [ت ٧٢٢ هـ] من نوادر الكتب فى الجراحة .

كانت هذه المكتبة القيمة مغلقة منذ سنتين قبل وصول ألفريد بيل ، و هو الذى أخبر بأمرها أرباب الحكومة . فوضعت لها فى الدولة الحسينية

---

١. طبعت أقسام الكتاب الاربعة مفرقة فى بغداد و دمشق و القاهرة و تونس فى الاعوام السابقة ، بحيث يصعب جمعها و الاحالة اليها . (ش)

٢. طبع بعنوان « رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة » فى مصر ١٩٢٥ م . (ش)

٣. ذكر سزگين هذه النسخة وغيرها فى كتابه (GAS II, 493) . (ش)

٤. هو على طراز النوادر القالى ، و لم ينشر حتى الآن . انظر وصفه فى مجلة المعهد ١٢/٥ . (ش)

٥. ذكره بروكلمان فى الملحق (S II, 336) . (ش)

فواعد لهذه المكتبة و مكتبة جامع الرصيف و مكتبة فاس الجديدة ، و توجد فى هذه القواعد البنود التالية :

لا تعار الكتب إلا بعد التأكد من سلامتها و حفظها بعد الاعارة ،
تصنع ثلاث فهارس منظمة للكتب ،
الكتب التى أعيرت سابقاً ترتجع أو تطلب نقولها أو أثمانها ،
تفتح المكتبة يومى الاثنين و الخميس ، و المكتبتان الأخريان يوم السبت ، لافادة عامة القراء . . . إلى غير ذلك من البنود .

و يبدو أن مكتبات مراكش ستنظم مثل مكتبات البلاد الأوربية ، و لكن الأسف أن أصحاب المكتبات الشخصية لم يفكروا إلى الآن أن يهدوا ذخائرهم إلى تلك المكتبات ، ليستفيد منها القراء و الباحثون أتم استفادة . والله ولىّ التوفيق .

(تعريب و تعليق : محمد عزير شمس)